حديث الإفك

الدكتور عبد السلام محمد الشريف

يقول الله تبارك وتعالى (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله علم حكيم . أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم) .

هذى آيات عشر من سورة النور نزلت فى حادثة من أشهد الحوادث التى وقعت فى حياة الرسول ﷺ . وكيف لا . وهذا الحادث أعنى حديث الإفك انما تناول أول ما تناول بيت النبوة فى أعز شيء وأكرمه . انه يتناول الاعراض وحسبك ماهى . ولنترك صاحب الظلال وهو يقدم لهذه الآيات فيقول(١) .

(وبعد الانتهاء من بيان حكم القذف يورد نموذجا من القذف ، ماشف

---

(١) الظلال ٢٤٩

عن شناعه الجرم وبشاعته، وهو يتناول بيت النبوة الطاهر الكريم، وعرض رسول الله — ﷺ — أكرم انسان على الله، وعرض صديقه الصديق ابى بكر — رضى الله عنه — أكرم انسان على رسول الله — ﷺ — وعرض رجل من الصحابة — صفوان بن المعطل رضى الله عنه — يشهد رسول الله أنه لم يعرف عليه الا خيرا . . وهو يشغل المسلمين فى المدينة شهراً من الزمان . .

ذلك هو حديث الافك الذى تطاول إلى ذلك المرتقى السامى الرفيع وبعدا أن يذكر آيات الكتاب التى تنزلت فى هذا الموقف يعقب فيقول .

وهذا الحادث حادث الأفك قد كلف أطهر النفوس فى تاريخ البشرية كلها آلاما لا تطاق، وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب فى تاريخها الطويل، وعلق قلب رسول الله — ﷺ — وقلب زوجه عائشة التى يحبها، وقلب ابى بكر الصديق وزوجه، وقلب صفوان بن المعطل ... شهرا كاملا . علقها بحبال الشك والقلق والالم الذى لا يطاق .

ولنفسح المجال للسيدة عائشة رضى الله عنها تروى لنا تفاصيل ذلك الحادث وتبين لنا سبب نزول هذه الآيات فتقول فيما رواه عنها البخارى بسنده .

(عن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه فأقرع بيننا فى غزاة غزاها فخرج سهمى فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب فأنا أحمل فى هودج فأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرحل فلمست صدرى فإذا عقدلى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمت عقدى فحبسنى ابتغاؤه فأقبل الذين يرحلون لى فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيرى الذى كنت اركب وهم

يحسبون أنى فيه وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم وانما يأكلن اللقمة من الطعام .

فلم يستنكر القوم حين رفعو وثقل الهودج فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدى بعد ما استمر الجيش فجئت منزلهم وليس فيه أحد فأقمت منزلى الذى كنت فيه وظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون إلى فبينما أنا جالسة غلبتنى عيناى فنمت وكان صفوان ابن المعطل السلمى ثم الزكوانى من وراء الجيش فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم فأتانى وكان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته فوطىء يدها فركبتها وانطلق يقود بى الراحلة حتى اتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين فى نحر الظهيرة فهلك من هلك .

وكان الذى تولى الأفك عبدالله بن ابى بن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهراً والناس يفيضون فى قول اصحاب الأفك ويريبنى فى وجعى أنى لا أرى من النبى ﷺ العطف الذى كنت أرى منه حين امرض إنما يدخل فيسلم فيقول كيف تيكم لا أشعر بشىء من ذلك حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع متبرزنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول فى البرية أو فى التنزه وأقبلت أنا وأم مسطح بنت إبى رهم تمشى فعثرت فى مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئسما قلت ، أتسبين رجلا شهد بدرا فقالت يا هناه ألم تسمعى ما قالوا فأخبرتنى بقول أهل الافك فازددت مرضا على مرضى .

فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول الله ﷺ فسلم فقال كيف تيكم فقلت إئذن لى إلى أبوى قالت وأنا حينئذ أريد ان استيقن الخبر من قبلهما فأذن لى رسول الله ﷺ فأتيت أبوى فقلت لأمى ما يتحدث الناس به فقالت يابنية هونى على نفسك الشأن فوالله لقلما كانت امراة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا اكثرن عليها فقلت سبحان الله .

ولقد تحدث الناس بهذا قالت فبت تلك الليلة حتى اصبحت لا يرقألى دمع ولا اكتحل بنوم ثم اصبحت فدعا رسول الله ﷺ على بن ابى طالب واسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما فى فراق أهله فأما اسامة فأشار عليه بالذى يعلم فى نفسه من الود لهم فقال اسامة ، اهلك يارسول الله ولا نعلم الاخيرا .

وأما على فقال يارسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك .

قد عاد رسول الله ﷺ (بريرة) فقال : يابريرة هل رأيت فيها شيئا يريبك ؟ فقالت بريرة . لا والذى بعثك بالحق ان رأيت منها امر اغمصه عليها قط اكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتى الداجن فتأكله فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبدالله ابن ابى سلول .

فقال رسول الله ﷺ . من يعذرنى من رجل بلغنى أذاه فى اهلى فوالله ماعلمت على أهلى إلا خيرا .

وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا وما كان يدخل على أهلى الا معى .

فقام سعد بن معاذ فقال : يارسول الله، أنا والله اعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وأن كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك .

فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحميـــة ، فقال ، كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على ذلك .

فقام أسيد بن الحضير فقال كذبت لعمر الله والله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا ورسول ﷺ على المنبر فنزل فخفضهم حتى سكتوا وسكت .

وبكيت يومى لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح عندى أبواى وقد بكيت ليلتين ويوما حتى أظن أن البكاء فالق كبدى .

قالت فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى إذا استأذنت أمرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فجلس ولم يجلس عندى من يوم قيل لى ما قيل قبلها ، وقد مكثت شهرا لا يوحى إليه فى شأنى بشىء .

قالت : فتشهد ثم قال: يا عائشة . لقد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله . وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة وقلت لأبى أجب عنى رسول الله ﷺ قال: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .

فقلت لأمى أجيبى عنى رسول الله ﷺ فيما قال . قالت والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ . قالت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن . فقلت والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر فى أنفسكم وصدقتم به ولئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى لبريئة لا تصدقونى بذلك . ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى لبريئة لتصدقنى . والله ما أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذ قال (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ثم تحولت على فراشى وأنا أرجو أن يبرئنى الله ولكن والله ما ظننت أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولا أنا أحقر فى نفسى من أن يتكلم

بالقرآن في أمري ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها . فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحي وأخذه ما كان يأخذ من البرحاء حتى أنه ليتحدر فيه مثل الجمان من العرق في يوم شات .

فلما سري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال يا عائشة احمدي الله فقد برأك الله .

فقالت لي أمي : قومي إلى رسول الله ﷺ . فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ... الآيات ...

فلما أنزل الله عز وجل هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد ما قال لعائشة فأنزل الله عز وجل (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى ... إلى قوله تعالى : (والله غفور رحيم) . فقال أبو بكر بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع مسطح الذي كان يجري عليه .

وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال : يا زينب ما علمت وما رأيت ؟ فقالت : يا رسول الله . احمي سمعي وبصري ، والله ما علمت عليها إلا خيراً . قالت : وهي التي كانت تساميني ، فعصمها الله بالورع) أ هـ(١) .

ها هي عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما وزوج رسول الله

---

(١) من التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح جـ ٢ ص ٢ وما بعدها .

ﷺ الحبيبة إلى قلبه تروى لناهذه الحادثة كما وقعت ومن يتأمل فيها يجدها قد اشتملت على الكثير مما يحتاج إلى بيان وإيضاح .

فقد فصلت القصه تفصيلا كشفت به عن ما ألم ببيت النبوة بل بما ألم بالمؤمنين عامة حينما تحدث أصحاب الإفك بأفكهم وتقولوا على زوج الرسول ﷺ ماتقولوه مما أثار الألم العظيم فى نفوس الجميع .

ولنعد إلى الآيات العشر محاولين أن نسلوا بعض الضوء عليها لعلنا نتعلم منها ونعلم ما فيها تبدأ تلك الآيات بقوله تعالى :

« إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » .

والإفك هو أبلغ الكذب والافتراء إذ هو قلب الشيء عن وجهه .

وقيل إنه الأمر الذى لا يشعر به الشخص حتى يفجأه ويبهته . والعصبة الجماعة . قيل أنها من العشرة إلى الأربعين وقيل من الستة .

والكبر قرىء بضم الكاف وكسرها وقيل أن معناهما واحد وهو عظمه(١) .

وقيل معناه بالضم عظمه ومعناه بالكسر أثمه ووزره(٢) .

ومعنى هذه الآية والله أعلم أن الذين أتوا بهذا الخبر إنما هم جماعة منسوبة إلى المؤمنين فيهم . كما قيل عبد الله بن أبى وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش وغيرهم ولا يشكل على ذلك وجود عبد ابن أبى فيهم مع ما هو معروف عن نفاقه لأنه كان مع ما عرف به من النفاق يعامله الرسول ﷺ بظاهر أمره حيث كان يظهر الإسلام وإن كان يبطن الكفر .

---

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٢ ص ١٧٤

(٢) مجمع البيان ج ٧ ص ١٢٨

ثم هم بعد ذلك عصبة أو عصابة قليلة العدد وفى هذا إدخال للسرور على قلب من تأذى بذلك الحديث بالإشارة إلا أنه لم يكن ذائعا بطبيعته ، بل إن الذى اختاره وأعان عليه إنما هم نفر معدودون أختلقه البعض ونقله عن غيره .

ثم إن ما حصل وإن كان ظاهرا فى الأذى والإيلام فإن الله سبحانه وتعالى يبشر من تأذى به بأنه ليس بالشر بل هو الخير وكيف لا .

وقد نزلت البراءة من عند الله سبحانه وتعالى قرآنا يتلى فكل من لم يصدق ببراءة عائشة كافر إذ هو لم يقبل ولم يصدق الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وأيضا فهو خير لهم لصبرهم على هذا الأذى الذى لحقهم ولأنه لولا ظهور هذا الحديث وتكذيب القرآن له لكان من الممكن أن يبقى مترددا فى جذور بعض الناس ممن وصل إلى أسماعهم ، أما وقد نزل القرآن ببراءة عائشة وبسجل الكذب على القاذفين فلم يبق بعد ذلك أى أثر لهذا الكذب .

هذا هو المتبادر من قوله تعالى (لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم) وإن ذهب البعض إلى أن الخطاب للقاذفين معللا ذلك بأن ما نزل من القرآن أصبح مانعا لهم من الاستمرار فى الخوض فى ذلك الحديث وأيضا فإن ذلك كان عقوبة معجلة لهم ، كما أنه كان سببا لتوبة من تاب فيهم ولكن هذا القول ضعيف والظاهر الأول(١) .

وإذا تمعنا النظر فى الآية الكريمة وجدناها تتحدث عن الخائضين باسم الموصول بدلا من ذكرهم بأسمائهم وكأنهم بذلك أصبحوا معروفين بفعلتهم النكراء فلم يكن هناك حاجة لتعريفهم بأسمائهم ، ثم إن الله سبحانه وتعالى سمى ما جاءوا به (الإفك) .

---

(١) النحو الرازى جـ ٣ ص ١٧٤

وهو كما سبق أبلغ الكذب لكن لم يذكر مرادهم صراحة وفى ذلك صون اللسان عن ذكر لفظ الزنا فى هذا المقام الذى يبرىء الله عز وجل فيه بيت أحب الخلق إليه من هو لا يليق بآحاد الناس فضلا عن أنبيائهم ، وكذلك فإنه جل وعلا حينما يذكر ماذكر بلفظ الأفك المعرفة فكأنه لا أفك غيره وكيف لأمر الظاهر من حال عائشة رضى الله عنها من قبل ومن بعد أنها فى المرتبة العليا من الطهارة فهى ابنة الصديق رضى الله عنه وزوج الرسول ﷺ ولا يجوز أن يكون أزواج الأنبياء غير عفيفات لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من كل ما ينفر منهم .

وهل هناك أكثر تنفيرا من أن تكون زوجة أحدهم فاجرة ، فالفجور عيب يلحق الزوج وينفر منه وعلى الرغم من أنه توجد ذنوب أعظم من الفجور كالكفر مثلا إلا أنها ليست بالمنفرة فالكفر قد وصفت به امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام ولم يكن ذلك من المنفرات بالنسبة إليها ، ومثل الكفر والقتل فإنه أعظم جرما ومع ذلك فلا ينفر الناس من القاتل بل إنما يكون تنفرهم ممن تلطخ عرضه .

يقول ابن كثير فى توضيح الخيرية التى لحقت بمن تأذوا بهذا الحديث عند تفسير قوله تعالى (بل هو خير لكم) أى فى الدنيا والآخرة لسان صدق فى الدنيا ورفعة منازل فى الآخرة وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها بإنزال براءتها فى القرآن العظيم ، الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) الآية ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضى الله عنها وهى فى سياق الموت قال لها أبشرى فإنك زوجة رسول الله ﷺ وكان يحبك ولم يتزوج بكرا غيرك ونزلت براءتك من السماء) اهـ (١) .

---

(١) ابن كثير ص ٣ ج ٢٧٢ .

وروى الطبري بسنده(١) قال: تفاخرت عائشة وزينب رضي الله عنهما فقالت زينب ، أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة : أنا التي نزل عذري في كتاب الله يوم حملني صفوان بن المعطل على الراحلة ، فقالت زينب يا عائشة ما قلت حين ركبت ؟ قالت قلت حسبي الله ونعم الوكيل، قالت قلت . قلمة المؤمنين .

وبعد ذلك يجيء قوله تعالى (لكل امرىء منهم ما اكتسب من الأثم) ليكون تهديدا شديدا ووعيدا عظيما لهـــؤلاء المتكلمين في حق عائشة رضي الله عنها إذ أن سبحانه وتعالى هو الذي تعهد بعقاب الخائضين وكان الوعيد عاما شاملا يتناولهم واحدا واحدا فلن ينجو منه أحد فلن يكون العقاب للمجموع بل للجميع مصداقا بقوله تعالى (لكل أمرىء) ولما كان ما اكتسبوه هو الخوض والافتراء والكذب فأن المعنى أنهم سينالون جزاء ما قدمت أيديهم والناظر في النظم الكريم يرى الله سبحانه وتعالى قد أتى بحرف اللام بدلا من حرف (على في قوله (لكل أمرى) وذلك للاشارة إلى أن العقاب المعد لهم هو حق ثابت لهم فلابد لهم من الحصول عليه (٢) .

واذا كان الله هو المتولى عقاب أولئك الأقوام على هـــذه الصورة فلا شك أن الأخبار به يكون نسبته عظيمة لمن ناله شيء من كلام الناس .

وفي تحديد المراد بمن تولى ذلك الأفك قولان : الأول وهو الأشهر أن المراد به هو عبدالله بن أبي بن سلول كبير المنافقين فهو الذي كان يمتلئ القلب منه بالحسد والبغض للرسول الله صلى الله عليه وسلم فانتهز الفرصة حينما رأى صفوان بن المعطل يقود البعير وعليه عائشة فقال

---

(١) المصدر السابق .

(٢) سورة المغور بفتح الجبالى ص ٥٤ وما بعدها .

ما قال مما تمسك القلم عنه من فاته السوء مع أن ظاهر الأمر كان السلامة كل السلامة فهما قد لحقا بالقوم فى رابعة النهار والكل يراهم وما ذلك شأن الخائنين .

أن من يأتى شيئا من هذه المنكرات تراه عادة يستتر ويختفى عن أعين الناس ، ولكن ما الحيلة وقد أكل الحقد والحسد قلبه ، وصدق تحيه قول الله تعالى (قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) .

أما الرأى الثانى : فهو أن المراد به حسان بن ثابت رضى الله عنه ، ويقول ابن كثير أنه رأى ضعيف .

ويروى هذين الرأين صاحب زاد المسير فيقول (وفى المتولى لذلك قولان : أحدهما أنه ابن أبى رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وعروة عن عائشة ، وبه قال مجاهد والسدى ومقاتل ، ما قال المفسرون ، هو الذى أشاع الحديث فله عذاب عظيم بالنار . وقال الضحاك : هو الذى بدأ به .

والثانى : أنه حسان ، روى الشعبى أن عائشة قالت ، ما سمعت أحسن من شعر حسان ، وما تمثلت به الأرجوت له الجنة ، فقيل ، يا أم المؤمنين أليس الله يقول (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) ، قالت ، أليس قد ذهب بصره ، وروى عنها مسروق أنها قالت ، ولى عذاب أشد من العمى ، ولعل الله يجعل ذلك العذاب العظيم ذهاب بصره ، تعنى حسان بن ثابت اهـ (١) .

ويزيد ابن كثير على هذا فيقول نقلا عن عائشة ، تكملة لتلك الرواية ثم قالت : أنه ينافح عن رسول الله ﷺ ، وفى رواية أنه أنشدها عندما دخل عليها شعرا يمتدحها به فقال .

---

(١) زاد المسير حـ ٦ صـ ١٩ .

حصان رزان وما تزن بريبة
وتصبح غرثى من لحوم الغوافل(١)

قالت : أما أنت فلست كذلك ا هـ(٢) .

وبعد أن ذكر القرآن هذا الحديث المفترى أتبعه بضروب من التأديب والزجر للمؤمنين لما وقع من البعض منهم وتنبيها لهم حتى لايقعوا فى مثل ذلك مستقبلا — فيقول جل فى علاه (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا أفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) .

ولولا هنا لعرض على فعل مايأتى بعدها والمعنى والله أعلم كان الأولى بكم والمطلوب منكم بمجرد سماعكم هذا الافتراء دون انتظار لتدبر أو تفكير أن تسارعوا الى الحكم بكذبه لما هو قائم .

— من الأدلة على افترائه إذ أن المقذوفة هى زوج رسول الله ﷺ ومنزلتها ومقامها يأبيان عليها شيئاً من ذلك .

ولعل هذا هو السر فى تقديم الظرف (إذ) فكان مجرد السماع كاف فى الحكم على ماقيل بالكذب .

وذلك لما تقدم من عظيم قدر عائشة رضى الله عنها ثم إن القرآن يمنى

---

(١) الحصان : هنا العفيفة والرزان الملازمة موضعها التى لاتتصدق كثيراً وامرأة رزان إذا كانت ذات ثبات ووقار . وما تزن أى ماتتهم . وغرثى أى جائعة . والغوافل جمع غافلة يريد أنها لاترتع فى أعراض الناس .

(٢) ابن كثير جـ ٣ ص ١٧٣

بإبراز وصف الإيمان ليرشدهم إلى أن مقتضى الإيمان أن يظن المسلم بأخيه الظن الحسن ولا يترك نفسه يتسرب إليها أى شك أو ريبـــة ، ثم إن الله سبحانه وتعالى يجعل المؤمنين كلهم كأنهم نفس واحدة فما يجرى على واحد منهم يجوز أن يجرى على الآخر .

وعلى هذا يكون الخطاب لمن سمع ذلك الحديث فسكت ولم يصدق ولم يكذب . ويجوز أن الخطاب الخائضين والمعنى هلا إذ سمعتم هذا الحديث ظننتم بها ماتظنونه بأنفسكم لو خلوتم بها وذلك لأنها كانت أم المؤمنين ومن خلا بها فكأنما خلا بأمه ومن خلا بأمه فأنه لايطمع فيها ولا تطمع فيه (وقالوا هذا إفك مبين) أى أنهم لايكتفى منهم بالعمل السلبى وهو عدم التصديق لما أشيع بل لابد مع ذلك من عمل إيجابى وهو أن يقولوا بألسنتهم ماوقر فى قلوبهم . أنه إفك كذب صريح وقلب للشىء عن وجهه الصحيح ظاهر كذبه بين افتراؤه .

ثم مكث الله أولئك القاذفين مؤكداً كذبهم حينما يقول (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء الآية فمعنى ذلك أن هـــذه الفريه العظيمة لايمكن أن تصدق إلا بالحجة التى تناسبها عظما وهو وجود أربعة شهداء .

ولعلنا نلحظ هنا شدة اعتناء الإسلام بهذه القريه حتى أنها لاتقبل إلا بشهود أربعة على العلم أن ماهو أكبر منها جرماً كالقتل يكتفى فى إثباته بشاهدين ولما كان مروجوا هذه الشائعة لم يأتوا على ماقالوه ببينة منهم عند الله أى فى علمه .

وفى الواقع هم الـكاذبون . ولا كاذب سواهم وفى هذا من المبالغة فى إثبات الكذب عليهم والمستفاد من تعريف طرف الجملة ووجود ضمير الفصل . وعلى هذا يكون الحديث خاصاً بحديث الإفك .

وقيل إنه عام يتناوله هو وغيره وعلى هذا يكون معنى (عند الله)

أى فى حكمه؛ لأن القاذف إذا لم يأت بالشهود فهو محكوم عليه بحكم الله بالكذب حيث يقام عليه الحد .

وأنى أثبت هنا ماقاله الشيخ إبراهيم الجبالى فى تفسير هذه الآية بنصه فقد أجاد وأفاد غفر الله له . يقول رحمه الله بعد أن ذكر الآيتين السابقتين .

لولا الحث على الشيء وتأكيد طلبه وبيان أنه كان ينبغى أن يسارع إليه لو تنبهم إلى ما فيه من دواعى الأخذ به وتلك الدواعى هى :

أولا : إن من عمر الإيمان قلبه من رجل أو امرأة وحص من نفسه أنها تأبى الوقوع فى مثل هذ الفحش ، ينبغى أن يقيس على نفسه من شاركه فى وصف إيمانه فقد وجد الإيمان بين أنفسهم ، وهنا سر قوله تعالى (ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، فكأن ماتظن وقوع غيرك فيه ترى أنه قريب الوقوع منك ، فهل أنت أيها المؤمن كذلك ؟ وحقا أن المرء يتخذ نفسه غالبا مقياسا لغيره ويحمل ماصدر منه على حال نفسه كما قال الشاعر :

إذا ساءت فعل المرء ساءت ظنونه

وصدق ما يعتاده من توهم

واستفزازا للحمية الرشيدة ببيان أن ماتوهموا لحوقه بأخوانهم فى الدين فقد جوزوا بمثل ذلك الريبة على أنفسهم فكأنهم رأوا الايمان غير كاف فى ردع النفوس عن شرورها ، ثم فيه تربية الأواصر والارتباط بين المؤمنين وأن أحدهم من صاحبه بمنزلة نفسه ، فينبغى أن يغار عليها غيرته على نفسه ، وقوله (وقالوا هذ إفك مبين) إرشاد لارد المنظر بأن لا يكتفوا بظن الخير فى أنفسهم بل يجب أن يتبعوه برد الفريه على صاحبها واسم الاشارة هنا القريب للتحضر كأنه يصور بصورة الأمر الذى لا يتشوف إليه ولا تتبعه النفوس استقصاء وذلك يكون فى القريب المشاهد ، وإفك

أى كذب مختلق بلا أصل وقلب الأمور عن وجهها ومفاجأة بالبهتان ومين، أى ظاهر فيه أمارات التكذيب لا يحتاج إلى شدة تأمل ، وذلك أن من مقتضى الكرامة اللائقة بمقام النبوة أن تصان فرشهم عن هذا التلويث المزرى بمقام صاحبه ، وأنه أن جاز أن تكفر امرأة نبى كامرأة نوح وامرأة لوط ، فأنه لا يجوز أن تفجر امرأة نبى وهى على فراشه ، فإن الكفر وإن كان أشد جرما من الفحش ولكن هذا الفحش أكبر منه عاراً وأشد تنفيراً ، وأوجب للإحتقار فى نظر الناس ، والأنبياء معصومون عن أن يلحقهم مايزرى بمقامهم ، ويحط من كرامتهم ، ثم أن منبت عائشة ونشأتها وما عرف من خلقها وعقلها بين فى أنها رضى الله عنها أبعد فى نظر كل عقل أن تحوم حولها الشبهات .

على أن صدور هذا الأفك عن قوم عرفوا بالنفاق وطم سوابق فى الكذب والبهتان أعارة على أن ما جاءوا به كذب وافتراء ومتى كانوا صادقين حتى يصدقوا فى هذا ؟ فكل ذلك من وجوه ظهور أن ذلك أفك ما كان ينبغى أن يحل فى نفوس المؤمنين محل أن يغيظهم ، ولا يفسكر على الوجه الأول وهو أن هذا لا يحتمل فى مقام الأنبياء، كونه ﷺ أختلفت عادته فى ملاطفتها حال مرضها ، وأنه سألها ذلك السؤال أمام أبويها ، فهذا إنما كان من ضيق صدره عليه السلام بكلام الأفاكين ، وقد قال الله تعالى (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) لا أنه تطرق إليه ريبة فى أهله، فقد قال فى خطبته (والله ما علمت على أهلى إلا خيراً) .

(لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) .

هذا من تأكيد فظاعة الأمر الذى أختلقوه، وأنه من القـــذف الذى لا يحل أن يقدم عليه امرؤ أو أن يؤخذ به إلا إذا كان له من الحجج ما يناسب

عظمه وفداحته ، وفى ذلك تأديب وتربية على أن تعطى كل دعوة ما يناسبها من الحجج ، وقد شرحت ذلك فيما سبق فى تفسير آية القذف .

وقوله تعالى : (فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) تقدير لكذبهم وتعليل له ، لا أنه تعليق ، فالمعنى هم الكاذبون عند الله فى هذا ، وكان حقكم أن تعرفوا كذبهم .

أولا تنخدعوا فى أقوالهم لأنهم لم يأتوا بالشهداء ، فليس هذا من باب عجز المدعى عن الإثبات ، وهو يستلزم الكذب ، بل من باب من اتجدع بكلامهم فى غير مظان الخديعة ، والإشارة إليهم بأولئك لاستحضارهم بصفاتهم التى بها استوجبوا تسجيل الكذب عليهم ، بل انحصار الكذب فيهم ، كما يستفاد من الجملة المعرفة الطرفين والمشتملة على ضمير الفصل . كقولهم ، هذا هو القاتل أى لا قاتل غيره ، فكأن كذبهم لشدة شناعته قد استأثر باستحقاق اسم الكذب ولا كذب غيره ، ومثله قولهم : هذا هو الرجل أى لا رجل سواه ، وكلمة (عند الله) أى فى علمه وفى الواقع فيها مزيد تقرير وتثبيت لهذا الحكم ، وأى أمر هو أثبت مما هو فى علم الله ؟ .

وعلى هذا يكون لهـــذا الكلام فى مورد القصة بعينه ، وهو عائشة رضى الله عنها ، وتكون — لولا — للتبكيت والتأنيب ، لا للحث والطلب .

وفى الآية وجه آخر وهو الحمل على العموم فيشمل هذه القصة وما يماثلها من نوعها ، وإذا تكون لولا لبيان ما يطلب فى مثل هذه الحال ، وقوله تعالى (فإذ لم يأتوا بالشهداء ، الخ .

يكون معناه أن من قذف ولم يقم البينة المطلوبة فهو كاذب عند الله أى حكمه فى شريعة الله حكم الكاذب يقينا فيقام عليه حد الكاذب وأن فرض

صدقه فى الواقع ، فمعنى (عند الله) أى فى حكم شريعته ، والوجه الأول أنسب بالسياق اهـ(١) .

وتستمر الآيات بعد ذلك فى الزجر والتأديب فيقول جل وعلا (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) .

ولولا هنا هى التى للربط وهى التى يقال فيها حرف امتناع لوجود ، والفضل : الزيادة والرحمة ، الرأفة ، والإفاضة ، الخوض مع الإكثار.

والمعنى أن الله يخاطب الخائضين فى الإفك ويذكرهم بنعمه عليهم فى الدنيا والآخرة حيث أنه فى الدنيا لم يعاجلهم بالعذاب بل أمهلهم فتمكنوا من التوبه وكان له من الفضل معهم فى الآخرة مثل ذلك حيث تفضل عليهم بقبول التوبة ، ولولا هذا الفضل وتلك الرحمة لالحقهم العذاب العظيم جزاء ما خاضوا فيه .

والتعبير عن العذاب بالمس لتهويل العذاب وبيان أنه يكفى للتخويف به والإزعاج منه ، وليس المراد تهوين شأن العذاب وتقليل ما يلحقهم منه ، وإنما وصف العذاب بالعظم ليناسب عظم الجرم ، وعلى هذا فالخطاب لعموم الخائضين بما فيهم عبد الله ابن أبى ، وقد لحقه الفضل فى الدنيا بالإمهال ، كما كان مرجا له فى الآخرة لكنه إضاعته بإصراره على نفاقه ، ويرى ابن كثير أن الخطاب خاص بالمؤمنين فقط من الخائضين أمثال حسان ومسطح وحمنة بنت جحش وذلك لأن شرط قبول التوبة الإيمان ومادام عبد الله بن أبى قد أصر على نفاقه فلن يناله ذلك الفضل لو تاب لن تقبل منه توبه(٢).

---

(١) شفاء الصدور ص ٦١ وما بعدها .

(٢) أنظر ابن كثير حـ ٣ صـ ٢٧٥

وعلى هذا يكون الخطاب فى الآية للمجموع وليس للجميع وهناك رأى آخر وهو أن الخطاب لعموم المؤمنين والمعنى لولا فضل الله لكان ما كان من أولئك الأقوام سببا فى عموم العذاب إذ أن ما وقع هو من الفتن العظيمة التى لا يقتصر ضررها على من أتى بها بل يعمه هو وغيره معه كما قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب)(١) .

وفى الآية إيحاء إلى لون آخر من الفضل وهى التنبيه على نعم الله عليهم التى ينبغى أن يشكروها فلا يكفروها ولا يغتروا بإمهال الله لهم، كما أن عليهم إذا ما وقعوا فى معصية أو تورطوا فى خطيئة أن لا يقنطوا من رحمة الله .

أما الخبر الخاص بالمقذوفين ومن يتصل بهم فحسبهم هذا التنويه العظيم بشأنهم إذ كاد سوء عمل القاذفين وبرودهم فى سوء العقاب فى الدنيا والآخرة ، بل كاد يلحق العذاب والهلاك بالجميع كما سبق بيانه .

ثم يبين الله سبحانه وتعالى أسباب العذاب العظيم الذى كان من الممكن أن يتعرضوا له لولا فضل الله عليهم ورحمته فيقول عز من قائل (إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) .

(وإذ) هنا ظرف متعلق بمسكم أو أفضتم وهو تعليل لما هددوا به إذ أن الظرف إذا تعلق بحادثة معينة كان كأنه سبب لها .

والتلق والتلقين والتلقف متقاربة المعنى، إلا أن فى التلقى معنى الإستعداد

(١) سورة الأنفال .

له ، والتهيؤ لأخذه ، وفى التلقف معنى السرعة فى الإلتقاط ، وفى التلقن معنى الحذق فى تفهمه واستقصائه(١) .

وذكر كلمة (بألسنتكم) للإشارة إلى أن الواحد منهم كان حين يلقى أخاه يسأله عن هذا الأمر فيستثير ماعنده، وهكذا حتى ذاع وشاع ودخل معظم البيوت أن لم يكن قد دخلها كلها، فكان السؤال هنا من السائل عامل جذب واستثارة لذلك الأفك العظيم ، وفى هذا تنبيه على عظم الجرم الذى وقع إذ لم يكن ماحصل مجرد سماع ، بل كان استثارة وتهييجا لذلك المأثم .

ثم يحدد الله جل وعلا كيف كان يصنع أولئك الأقوام وهم يذيعون ذلك الكلام فيقرر أن ذلك القول إنما كان من أفواههم . ولما كان القول لايكون إلا بالأفواه فكان التصريح بها هنا إشارة إلى أن العلم يحل فى القلب ثم إذا أراد الإنسان نشره عبر عنه بفمه ، أما ماكان منهم فلم يكن له أصل فى قلوبهم وإنما هى كلمات خرجت من أفواههم دون أن يكون فى القلب أصل لها متفرع عنه، ومثل ذلك قوله تعالى:(يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم) ثم هم بعد ذلك لم يلتفتوا إلى خطر ما وقعوا فيه وعظم ماأتوا به ، بل حسبوا أنه أمر سهل وشىء ليس ذا بال وهو على العكس من ذلك .

ولعل هذا فيمايدل عليه أن العظائم ليس مردها حسبان مرتكبها بل هى عظيمة فى ذاتها سواء تنبه إلى ذلك فاعلها أم لم يتنبه بل أن جرمه يكون أشد وفعلته أعظم حين يقلب الحقائق فيرى العظيم غير عظيم فيكون فيه الإقدام عليه غير هياب ولا وجل .

---

(١) شفاء الصدور ص ٦٦

ومن هنا يظهر أن أسباب المؤاخذة ثلاثة :

الأول : هو تلقفهم هذا القول بعضهم من بعض .

الثانى : أنهم تحدثوا بما ليس لهم به علم .

الثالث : حسبانهم أن ما كان فيهم هين وسهل وهو كما قال الله (عظيم) وبناء على فهمهم لم يسارعوا إلى الإستغفار .

وإذا كانت هذه الآية قد حوت المخالفات الكثيرة التى وقعت ممن تحدثوا بالأفك فهى كذلك قد حوت خيراً للمؤمنين حيث أنها ربتهم وعلمتهم ما يكون فى الأمور الدقيقة من الخطر حتى يحترسوا فلا يكون منهم فى مستقبل أيامهم شيء يماثل أو يقارب لما وقع من غيرهم مما كان سبباً فى نزول هذه الآيات فى شأنهم ، وتجيء الآية الثالثة توضح ماهو الأليق والأجود بالمؤمنين فى مثل ذلك المقام : يقول تعالى : (ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) .

فهذا لفت للنظر لما هو الأليق والأجدر ، فى مثل هذا الموقف ، ولولا هنا لبحث المصوب باللوم إذ أن كل الدلائل كانت منصوبة للتدليل على كذب هذا القول وبراءة وشرف من تحدثوا عليهم به ، وذلك لأن هذا القول فيه ايذاء لنبى ﷺ مع الوعيد الشديد على ذلك من الله سبحانه وتعالى حيث يقول : (أن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعدلهم عذاباً مهيناً)(١) .

وكذلك فيما أتوا به قذف لعائشة رضى الله عنها وهى الصديقة بنت الصديق رضى الله عنه وهو من هو شرفاً ، وأن الألم يشتد عليه حين

---

(١) سورة الأحزاب .

يسمع ما كان فلا يطلب دليلا خارجا بل ينطبق لسانه وهو الصابر المحسب القوى على الألم فيقول، والله ما رميتا به فى الجاهلية، أفترض به فى الاسلام؟ وهى كلمة تحمل من المرارة ما تحمل(١) .

ثم هى بعد ايذاء النبى ﷺ وزوجه الطاهر ولا تعود الا بالوزر والويل على من تحال بها ، فلهذا كله كان الإقدام على مثل هذا الكلام ليس له دليل أو شبهة دليل وما دام الأمر كذلك كان الواجب على السامعين أن يتحرزوا عن السماع فضلا عن الخوض بل يقولوا كما علمهم الله (سبحانك هذا بهتان عظيم) وقد قيل ان بعض الصحابة كسعد بن معاذ رضى الله عنه قال تلك المقالة حين سمع ذلك الكلام فنزلت الآية على وفق قوله كما روى أن أبا أيوب الأنصارى قالت له أمه، ألا تسمع ما يقول الناس فى أمر عائشة ؟ ، فقال ، هذا إفك مبين ، أكنت يا أماه فاعلته ؟ قالت : معاذ الله ، قال : عائشة والله خير منك ، فنزلت هذه الآية .

وفى رواية أخرى عن عائشة رضى الله عنها ان امرأة أبى أيوب الأنصارى قالت له ألم تسمع ما يقول الناس ؟ فقال لها (ما يكون لنا أن نتكلم بهذا) الآية فنزلت الآية(٢) .

ولا ينكر على ما ذكر من وجوب الإنكار والايمان بنزاهة عائشة رضى الله عنها ما كان من أبى بكر رضى الله عنه من جزع فلم يكن ذلك لريبة أوشك منه وإنما كان ذلك للأذى الذى لحقه من هذا الكلام مما لا أصل له .

وقد وردت حكاية ما كان بين أبى أيوب وزوجة بشىء من التفصيل

---

(١) ظلال القرآن مجلد ٥ صـ ٢٤٩٨

(٢) زاد المسير حـ ٦ صـ ٧٠، ٧٢

كما جاء فى شفاء الصدور حيث قال : وروى أن أبا أيوب قال لزوجه : ألا ترين ما يقول الناس ؟ فقالت : لو كنت مكان صفوان أكنت تظن يخرم رسول الله ﷺ سواء؟ قال : لا، قالت: ولو كنت مكان عائشة ما خنت رسول الله ﷺ ، وعائشة خير منى وصفوان خير منك ، فقال أبو أيوب (ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم)(١) .

أما قوله تعالى (سبحانك) فهو للتعجب أو التنزيه وقد وضح ذلك الإمام الفخر الرازى حيث قال : كيف يليق سبحانك بهذا الموقف ؟ والجواب من وجوه . الأول — المراد التعجب من عظيم هذا الأمر ، فإنما استعمل فى معنى التعجب لأنه يسبح الله عند رؤية التعجب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل فى كل مستعجب منه — الثانى — تنزيه الله سبحانه وتعالى أن يكون زوجة نبيه فاجرة — الثالث — انه منزه ان يرضى بظلم هؤلاء الفرقة المفترين . — الرابع — أنه منزه عن أن لا يعاقب هؤلاء القذفة الظلة ا . هـ(٢) .

(يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) .

وهذا زجر من إليه سبحانه وتعالى للمؤمنين حتى لا يقعوا فى مثل ذلك الذنب العظيم مرة ثانية وهذا كالنتيجة لما سبق من الآيات وإفادة أن ما ذكر لم يكن الغرض منه التقريع والتوبيخ فحسب ، وإنما كان فيه مع ذلك التنبيه لما يجب أن يكونوا عليه فى المستقبل من اليقظة حتى لا يقعوا فى مثل ما وقعوا فيه ، فيكون عاقبة أمره وبالا عليهم فى الدنيا بالحد وفى الآخرة بالعذاب ، وهذا شامل لمن أتى بهذا الكلام وشامل لمن سمعه ولم ينكره فكل قد وقع فى الاثم ، وأن كان اثم المختلق له البادىء به أشد .

---

(١) شفاء الصدور ص ٦٨

(٢) الفخر ج ٢٣ ص ١٨٠

ومعنى (أبدا) أى طيلة حياتكم ، ثم تعقيبه بقوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) فيه الدلالة على أن مقتضى الايمان الكف عن قذف المحصنات وأن من يقع منه مثل هذا العمل لم يتمكن الايمان من قلبه تمام تمكن ولذا لم يؤت الثمرة المطلوبة أما قوله تعالى (ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) ففيه لفت للأنظار والعقول للتفكر فى حكم الله وأحكامه فى ذلك زيادة إتمامها لها وحمل للنفس على قبولها ؛ وتكرير لفظ الجلالة ليتمكن الأمر فضل تمكن ، والعليم هو المحيط بكل شيء وما يترتب عليه ، والحكيم هو الذى يضع الأمور فى نصابها ، وتستتبع أفعاله الفائدة والثمرة المقصودة منها .

ولما بين الله سبحانه وتعالى ما على أهل الأفك وما على من سمعه وما ينبغى ان يتمسك به المؤمنون فى مثل هذه المواقف أتبع ذلك بقوله جل وعلا خاتما للآيات العشر التى نزلت فى هذا الأمر فقال :

(ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وانتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم) .

وفى هذا خير للمؤمنين حيث أرشدهم الله تعالى الى عظيم هذا الجرم شديد خطره مع أنهم كما حكى عنهم القرآن من قبل كانوا يحبونه هينا وهو عند الله عظيم .

والشيوع : الانتشار ، والفاحشة والفحش ، الجرم المخزى المعيب . وربط الآية العذاب الأليم بمحبة الشيوع مع أن الظاهر ان يربط بالشيوع نفسه كان يقال . ان الذين يشيعون الفاحشة ، فيه نوع من الزجر أشد ما يكون ، فإذا كان هذا تهديد على من أحب شيوع الفاحشة ، والمحبة أمر قلبى قد يظهر وقد لا يظهر ، فما بالك عن شاع بالفعل أليس هو الأجدر والأحق بمثل ذلك العذاب ؟ .

وفى الآية مع ذلك تنبيه على أصل الداء وهو المحبة لمثل هذا الأمر المستقبح المكروه وإذا ما عرف العاقـــل أصل دائه كان من السهل عليه علاجه واستئصال المرض من نفسه فيجب الابتعاد عن التحدث بالفحش والفحشاء. فإن النفس الكريمة تنفر وتشمئز لسماعها مثل هذا القول فإذا ما تكرر عليها مرات ومرات فانها تألف سماعه ولا تنكره بل ربما طاب لها أن تبحث عنه .

وقد جاء فى الآية الكريمة التعبير بلفظ الفاحشة بدلا من لفظ الزنا، تماشيا لذكر هذا اللفظ فى هذا المقام ولو كان منفيا مبالغة فى تطهير من جاءت هذه الآيات لاظهار براءتها وطهارتها ، ثم ليعم الكلام كل فاحشه .

أما قوله تعالى (فى الذين آمنوا) فهو كالدليل على ما سبق من نزاهة وشرف من رمى بالافك، فإن الايمان إذا سكن فى القلب صدقه العمل ، فلا يكون المؤمن بناء على ذلك مظنة لمثل هذا الفحش كما أن فيه لفتا للأنظار كى يتنكر الناس فى انفسهم فأذا كان من سمع مؤمنا وفكر فى نفسه ونظر إلى إيمانه فانه لا بـــد أن يستبعد ذلك عن نفسه فأدلى به كذلك ان يستبعده عن المؤمنين أمثاله .

وفى التعبير بقوله تعالى (لهم عذاب الآية اشارة إلى أن العذاب حقهم ونصيبهم ولن يتمكنوا من الافلات عنه ، وقيل ان المراد بالعذاب فى الدنيا إقامة الحـــد وفى الآخرة عذاب النار ، كما قيل ان العذاب الدنيوى هو مايتعرضون له من تعرض الأعراض من مصائب الدهر وألسنة الناس عادة. ومن فتن عن عورات الناس فضحوه ، ومن لا يتقى الشتم يشتم .

وقوله تعالى (والله يعلم وانتم لا تعلمون) فيه بيان لأن محبة الشيوع قلبيه فلا يعلم بها الناس وإنما يعلمها علام الغيوب، كما أنه قد يستكثر ما جاء من العقاب على ذلك الصنيع وكأن المستكثر يقول إنه كلام ، فأشاء الله

بذلك إلى أنه جل وعلا يعلم خفايا وعواقبه الخطيرة الكثيرة فكان ذلك الموعد جزاء مرفاقا ، وكأنه سبحانه يدعونا إلى التمسك بهدايته فيما علمنا حكمته وفيما لم نعلم لأنه هو العليم فلا نترك علمه ونركن إلى الأوهام ، ولذلك أعقبه بقوله تعالى (ولولا فضل الله . . الآية أى أنه سبحانه وتعالى تفضل بالارشاد إلى ما فيه الخير والزجر عما فيه الضرر وتقطع الأوصال وتنفير القلوب .

ثم تختم الآيات بقوله تعالى (والله رءوف رحيم) لتلفت الأنظار إلى أنه جل وعلا قد تفضل عليهم ومنحهم رحمة فكان ذلك إحسانا منه ، أما منشأ ذلك الاحسان فهو تلك الصفة الثابتة لله . انه الرءوف الرحيم . واذا كان بهم كذلك ، وجواب لولا محذوف تقديره لعاجلتم بالعذاب وقيل غير ذلك وبهذا تختم الآيات العشر لتتبعها بقية الآيات التى نزلت على اثرها وبسببها وعلى الله قصد السبيل والحمد لله رب العالمين .